« المستشرقون ومدى اقترابهم من حقيقة الإسلام؟

(المستشرق الألماني –شيخ المستشرقين: "تيودور نولدكه"

THEODORE NÖLDEKE وكتابه « تاريخ القرآن » نموذجا)

الطيب حديدي أستاذ وباحث

بمعهد الغزالي بمسجد باريس الكبير

الإشكالية: – الاستشراق، مشكلة معرفة أم مشكلة اعتراف بالآخر؟

تقتضي ضرورات التعارف والتعاون بين الأمم والثقافات والحضارات أن يكفّ البشر عن إنتاج المعارف المشوّهة، وعداء الآخر، كما لو أن الحروب الصليبية لا يمكنها أو لا ينبغي لها أن تتوقف!! إن العرب والمسلمين عموما يواجهون في هذه الحقبة من تاريخهم موجة جديدة قديمة من الجهل والكراهية وضيق الأفق، تستغرب وجودهم الروحاني الإسلامي، بل وتسعى جاهدة لمصادرة حقهم المشروع في الانتماء إلى الإسلام عقيدة وشريعة ثقافة وحضارة وأخلاقا.

يوجد اليوم في عالمنا العربي والإسلامي ما يقرب من الإجماع الشعبي –على الأقل– إن لم نقل النخبوي والأكاديمي على أن الاستشراق في مجمله أسهم في إنتاج العداء للعرب والإسلام، وأسهم بالتالي في استباحة عنصرية للوجود الإسلامي، لا تزال آثاره تتناسل وتتكاثر إلى يومنا هذا[1].

ولا يعني اهتماماتهم المعرفية تصحيح الصورة النمطية السائدة عن الإسلام والمسلمين، ذلك أن اللاهوتيين الأوروبيين لم يكونوا يسعون لمزيد من التعرف على

(1) وراجع: ريتشارد سوذرن، ترجمة رضوان السيد، صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى، معهد الإنماء العربي، ط1، بيروت، 1994، ص22..

الإسلام، بقدر ما كانوا يقترحون وسائل وأساليب لمواجهته والقضاء عليه حربا أو سلما[1].

نحاول في هذه المقالة تحليل الإشكالية وحلها، وتتمثل الإشكالية فيما يأتي:

هل استطاعت المعرفة الاستشراقية المتزايدة عن الإسلام دينا وكتابا ونبيا أن تبدّد ما تراكم عبر القرون من موروث المنهج الغربي الخطأ المتمثل في إنتاج المعرفة المشوّهة عن الإسلام وكتابه ونبيّه؟ وبتعبير أدق وأشمل، هل الاستشراق مشكلة معرفة أم مشكلة اعتراف بالآخر؟ وهو ما حدا بنا إلى اعتماد المستشرق الألماني "تيودور نولدكه" THEODORE NÖLDEKE وكتابه "تاريخ القرآن" نموذجا، و تحديدا ما جاء في الجزء الأول منه عن: أصل القرآن – النبوّة – الوحي – ومصادر تعليم النبي ﷺ.

التيار العام للاستشراق (إطلالة سريعة): - لا نريد الدخول في بحث واسع الأطراف عن الاستشراق ومدارسه، وهل يشمل جميع من درسوا الإسلام وحياة النبي ﷺ، أو من أبدوا اهتماما بالعرب وتاريخهم ولغتهم وجغرافيا بلادهم فحسب، ولا نريد التوقف عند عبارة « الشرق » وعبارة « العرب » ومضمون كل منهما، ومن تشملان، ومن يخرج عنهما، وهل الاستشراق وحدة واحدة متماسكة، أم أنه مدارس، وتيارات، واتجاهات، وهل هو علم له أسسه وقواعده، أم أنه مجرد ظاهرة استنفذت أغراضها .. وغيرها من الأسئلة والبحوث التي يتطرق إليها – عادة – العلماء والباحثون الأكاديميون في الجامعات والمؤتمرات والدوريات المتخصصة..

وبالرغم من تعذر الاتفاق على مفهوم الاستشراق ومضامينه وحدوده وأمام التنوع المدهش في عالم الاستشراق والمجالات الواسعة التي يعالجها، وطرائق البحث

(1) وانظر على سبيل المثال لا الحصر، الطيب بن إبراهيم، الاستشراق الفرنسي وتعدد مهامه خاصة في الجزائر، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى بالجزائر، 2009.

التي تتداخل وتتخارج، يصعب إن لم نقل يستحيل وضع هؤلاء المستشرقين الخبراء والدارسين والباحثين في مختلف التخصصات اللغوية والأدبية، والدينية .. وغيرها، وعلى مختلف مستوياتهم؛ يصعب وضعهم جميعا في نسق واحد موحّد في عمومياته وجزئياته، وتعميم حكم واحد عليهم جميعا.

بدايات الاستشراق: يرجع ظهور الاستشراق في بعض البلدان الأوروبيـة إلى القرن الثالث عشر الميلادي. وربما كانت هناك محاولات فردية قبل ذلك، غـير أن المصادر التي بين أيدينا لا تسلط الضوء الكافي على الموضـوع، وإن أشـارت إلى بعض المستشرقين كأفراد. ويكاد المؤرخون يجمعون على أن الاستشراق في أوروبا انتشر بصفة جدية بعد فترة "عهد الإصلاح الديني" كما يشهد بذلك التـاريخ في هولندا والدانمارك وغيرهما ..

وفي الغرب "المسيحي" يؤرخ لبدء وجود الاستشراق الرسمي بصدور قرار مجمع فيينا الكنسي عام 1312 بتأسيس عدد من كراسي الأستاذية في اللغات «العبرية» و«السريانية» و«اليونانية» و«العربية» في جامعات باريس، وأكسفورد (بريطانيا)، وبولونيا، وأفينيون وغيرها[1]، لأغراض حمائية وتبشيرية[2]، ثم التقت هذه الأغراض

(1) وراجع: إدوارد سعيد، ترجمة كمال أبو ديب، الاستشراق (المعرفة – السلطة- الإنشا)، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط8، 2010، ص80.

(2) وأول ترجمة للقرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية عام 1143 كانت بتوجيه من الأب بيتروس فينيرا بيليس رئيس ديركلـوني، وتم ذلك على أرض إسبانية، ومنها نشأ أول قاموس لا تيني عربي، ثم أعقب ذلك إنشاء كراسي اللغة العربية، وكان الهدف في ذلك العصر والقرون التالية هو "التبشير" وهو إقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الإسلام والعمل على ارتدادهم إلى المسيحية.

وراجع: رودي بارت: ترجمة د.مصطفى ماهر، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية (المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه)، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1967، ص9.

وراجع أيضا: أليكسي جورافسكي، ترجمة، د.خلف محمد الجزاد، الإسلام والمسيحية: من التنافس والتصـادم إلى آفـاق الحـوار والتفاهم، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1996، ص81

حيث يؤكد المستشرق الروسي أ.جورافسكي أن بطرس المبجل الذي ترجم هو الآخر القرآن إلى اللاتينية – ويمكن اعتباره مؤسس الدراسات الإسلامية لدى مسيحيي القرون الوسطى – انطلق من مسلمة حتمية الصراع مع الإسلام، ولكن ليس بالسيف، وإنما "بالكلمة"، وفي نظرته للمسلمين كهراطقه، اعتقد بطرس المبجل بإمكان إعادتهم إلى فلك الكنيسة شريطة أن يتمكن اللاهوتيون

في القرن التاسع عشر مع النوايا والخطط الاستعمارية الغربية، لإخضاع العالم الإسلامي لهيمنة الغرب. وفي سبيل ذلك تمخضت جهود الاستشراق عن كمّ هائل متواصل من البحوث والدراسات والكتب والمؤتمرات، والمجلات، وأسفرت تلك الجهود عن اقتحام الاستشراق مجالات بحثية وعلمية كان من أهمها على سبيل المثال لا الحصر:

- المخطوطات الإسلامية تحقيقا وجمعا وفهرسة ودراسة وحفظا ونشرا.
- تأليف المعاجم اللغوية الحديثة.
- إنجاز دائرة للمعارف الإسلامية.
- معجم مفهرس لموضوعات القرآن الكريم[1]
- معجم مفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف.

واصطنعت جهود الاستشراق لنفسها مناهج بحث ودراسة ونقد التراث الإسلامي، مع الإشراف- وهو أمر في غاية الأهمية والخطورة – على أقسام الدراسات الإسلامية في الجامعات الأوروبية وتوجيه طلابها والمنتسبين إليها – من المسلمين وغير المسلمين – بما يخدم الأغراض المتوخاة من إنشاء تلك الأقسام الدراسية[2].

والمبشرون المسيحيون بإقناعهم وبيان مكمن انحرافاتهم وضلالتهم.

(1) ومن استقراء جهود الاستشراق في الدراسات القرآنية يتبيّن أن أهمها تمحور حول:

تاريخ القرآن وكل ما له علاقة بأسباب نزوله، وتاريخ سوره، ومكيه ومدنيه، وقراءاته ولهجاته، وكتابته وتدوينه ترجمة القرآن إلى مختلف اللغات الأوربية.

ج- البحوث العامة والدراسات المتنوعة التي تنبثق عن القرآن في علومه وبلاغته مسايرته للحياة في الفلسفة والاجتماع والفن.

(2) وقد جاء في تقرير المراجع الأكاديمية المسؤولة في جامعة كمبرج (بريطانيا) بصدد إنشاء كرسي اللغة العربية فيها المؤرخ في 1636/05/09 بأننا "نهدف إلى تمجيد الله بتوسيع حدود الكنيسة، والدعوة إلى المسيحية بين هؤلاء الذين يعيشون في الظلمات". وراجع د.عبد اللطيف الطيباوي، المستشرقون الناطقون بالإنجليزية ومدى اقترابهم من حقيقة الإسلام: مجلة الإنماء العربي للعلوم الإنسانية، عدد 32، بيروت، يونيو1983، ص96 نقلا عن: AJ-Abesry: The cambridge

وإذا كان الاستشراق في بداياته، قد اتجه نحو العقل الأوروبي، للحيلولة بينه وبين التعرف على الإسلام، كما تشهد بذلك ترجمات أوروبية مبكرة للقرآن الكـــريم، وبعدها الدراسات التاريخية والاجتماعية والتراثية عموما في المعاهـــد والجامعـــات والمراكز العملية والإدارية، التي أنشئت خصيصا لتخـــريج القناصـــل والســـفراء والخبراء... لتأمين مصالح بلادهم، وتوفير المعلومات عن بلاد العالم الإســـلامي، وإقامة مراكز لدراسة هذه المعلومات وتحليلها، لتكون بمثابة دليل في التعامل مـــع مختلف بلدان العالم الإسلامي، فإن هذا التوجه الاستشراقي، إذ يصعب فصله عـــن الصورة النمطية باعتباره رافدا أو تتويجا لها، فإنه في الحـــالتين يســـاعدنا في إدراك طبيعة الموقف الغربي من الإسلام عند ظهوره. ففي القرون الوســـطى الأوروبيـــة: ورغم ما كان للإسلام من تأثير على ميادين الحياة المختلفة الأوروبيـــة المعيشـــية والتجارية والاقتصادية والسياسية والأدبية والعلمية والفلسفية، فقد أصبح رمـــزا للرعب والدمار، والمسلمون أفواجا برابرة ممقوتين ... بل مثل ظهـــور الإســـلام صدمة تتلخص ملامحها فيما يلي:

ملامح الصّدمة الأولى:- لا ريب أن مؤسسة الاستشراق قد نشأت – في سياق التحدي الذي وقفه الغرب إزاء الإسلام عند ظهوره[1]، ثم أصبح مسؤُولاً – لاحقا – عن تشكيل موقف الغرب من الإسلام والمسلمين. إنه ظاهرة معقدة تختلط فيها الإيجابيات بالسلبيات، والحسنات بالسيئات، والعلم بالأهواء حينا، والمعرفة بالمكر والدهاء أحيانا أخرى!! ولا ريب أن الاستشراق قد حقق كثيرا من الأغراض التي

Sahooc of arabic, Cambridge 1948, p.8.

(1) يعرض المستشرق الروسي أ.جورافسكي في الفصل الأول من كتابه "الإسلام والمسيحية" السياق الروحي والتاريخي للعلاقـــات المتبادلة بين الإسلام والمسيحية و"ملامح الصدمة الأولى لظهور الإسلام" وأثرها المباشر في صنع صورة الإسلام في الفكر الديني- الفلسفي الأوروبي ليخلص إلى نتيجة أنه"وبشكل عام وخلافا للموقف الإسلامي الهادئ كان موقف المسيحيين الغربيين مـــن الإسلام انفعاليا وغير متسامح روحيا، لأن الإسلام كان في تصورهم "تحديا" تطلب ردّا ومقاومة، وأنه لابد من دراسته لإدارة الصراع معه بنجاح وراجع: جورافسكي، المرجع نفسه ص41.

قام من أجلها. ولا ريب كذلك أن الاستشراق؛ (بمعنى أن يتخصص آلاف من أبناء الحضارة الغربية في دراسة الإسلام وحضارته من جميع جوانبها) يعد ظاهرة فريدة في تاريخ الثقافات والحضارات الإنسانية.

تمثلت ملامح الصدمة الأولى لظهور الإسلام – كما يطلق عليها المستشرق الروسي أ.جورافسكي – في أن الإسلام شكّل تحديا هائلا للغرب منذ أيامه الأولى[1]. وقد شمل هذا التحدي الجوانب السياسية والحضارية والدينية، فصمّم الغرب على مواجهة التحدي بالتحدي .. وتشير الدراسات الغربية المهتمة بالرؤى الأوروبية للإسلام في العصور الوسطى إلى أن هذه الأخيرة اتسمت بمعالم بارزة، أهمها:

أ) صورة النبي محمد ﷺ والإسلام؛ فقد كان الحس الأوروبي في هذه الحقبة مشبعا بترقب يوم القيامة بأمارات محددة حسب العهد القديم وإنجيل يوحنا؛ فقد رأى اللاهوتيون الغربيون منذ القرن التاسع (9) الميلادي أن النبي محمد(ﷺ) يدخل ضمن تلك الأمارات، ومن هنا ارتسمت وفي وقت مبكر جدا صورة للنبي محمد (ﷺ) باعتباره المسيح الدجال كعلامة كبرى لليوم الآخر عند هؤلاء اللاهوتيين.

ب) رأى هؤلاء اللاهوتيون أن النبي محمد (ﷺ) مجرد مطران لدى الكنيسة كان[2] يطمح إلى منصب البابوية، وعندما خانه الحظ ادعى النبوة تبريرا لفشله!! وأن الإسلام هرطقة انفصلت عن المسيحية الكاثوليكية الصحيحة، وهذا تصور بيزنطي الأصل كما يؤكد ذلك الغربيون أنفسهم[3]. هذان السببان (أ، ب) السابق ذكرهما أسهما في نسخ خيال شعبي، يصور الإسلام على أنه وثنية فظيعة قوامها

(1) وراجع: أليكسي جورافسكي، المرجع نفسه، الفصل الأول: صورة الإسلام في الفكر الديني الفلسفي الأوروبي (ملامح الصدمة لظهور الإسلام).

(2)

(3) وانظر على سبيل المثال: د.رضوان السيد، مصدر سبق ذكره، الفصل الأول حقبة الجهل.

ثلاثون إلها أحدهم أحمد. والغريب أن خيالا كهذا بقي ساري المفعول حتى وقت متأخر من العصر الأوروبي الوسيط، يضاف إلى ذلك أن الاستشراق –لاحقا– أسهم في نعت الإسلام والمسلمين باللاأخلاقية، والتبلد العقلي ورفض الحوار، ومن الغريب أيضا أن تكون أول رؤية مسيحية غربية عن الإسلام ودوره في التاريخ مصدرها العهد القديم(1)، إذ هنا كحديث مجازي عن حيوانات أسطورية أربعة، ولسبب ما، ارتأى الإسباني باول الفاروس أن الحيوان الرابع هو الإسلام ودولته، وأنه بفناء الحيوان الرابع تكون نهاية العالم(2). وهذه –في حقيقة الأمر- إشارات واضحة إلى أن مصادر الأوربيين الغربيين عن الإسلام، وحتى مطلع القرن الثالث عشر تحريفات بيزنطية وأساطير خيالية وتصورات تعود في جذورها إلى العهد القديم، وهو ما لا نجد معه غضاضة في وصف تلك الحقبة (ما بين القرنين الثامن والثاني عشر الميلاديين من التاريخ الأوروبي بأنها تجسد حقبة الجهل والكراهية وضيق الأفق تجاه الإسلام دينا وكتابا ونبيا...

لقد كان واضحا جدا أن موقف مسيحية القرون الوسطى من الإسلام حددته علامتان بارزتان:

أولهما: ضرورة التعلم من الإسلام، كونه الأقوى والأعلم من جهة.

وثانيهما: التصارع معه كعقيدة غريبة ومعادية من جهة أخرى. وهذا ما دفع بالمستشرق الروسي جورافسكي إلى وصف الصورة النمطية الأوروبية عن الإسلام، آنذاك بأنها "مزيج متناقض لمعارف موضوعية مع تشويهات خطيرة، حيث هيمنت (الصورة النمطية) بشكل ثابت، راسخ لمدة تاريخية طويلة على عقل الإنسان الأوروبي ومنطقه ومداركه تجاه الإسلام وحضارته" ويضيف قائلا: "لهذا يمكن

(1) وراجع: سفر دانيال، الإصحاح السابع وعنوانه: الحيوانات الأربعة، الكتاب المقدس (العهد القديم): دار المشرق، بيروت، ط 3، 1988، ص 1874.

(2) ريتشارد سوذرن، مصدر سبق ذكره، ص 13.

القول أن التصورات الغربية المعاصرة حول دين المسلمين، لم تتكون وترتسم في صفحة بيضاء خالية، وإنما انعكست في مرآة قديمة مشوّهة، فسكان أوروبا المعاصرة ورثوا عن أسلافهم من القرون الوسطى مجموعة عريضة وراسخة من الأفكار حول الإسلام، التي كانت تتغير مظاهرها الخارجية تدريجيا فقط بسبب تغير ظروف أوروبا ذاتها، وتبعا لطبيعة علاقات أوروبا ومواقفها المستجدة نسبيا مع البلدان الإسلامية وثقافاتها الحديثة. وبشكل عام، فقد تكونت في وعي الأوروبيين في القرون الوسطى ملامح اللوحة التالية عن الإسلام:

إنه عقيدة ابتدعها محمد، وهي تتسم بالكذب والتشويه المتعمد للحقائق، إنها دين الجبر، والانحلال الخلقي، والتساهل مع الملذّات والشهوات الحسية، إنها ديانة العنف والقسوة[1].

أهمية الاستشراق:-الإنتاج الفكري الغربي والاستشراق جزء منه يمثل في حقيقة الأمر الوليد الطبيعي والشرعي للثقافة التي تنتجه والحضارة التي ينشأ في مناخها. والمفكر – إلى حد بعيد – رهين الثقافة التي ينشأ في أحضانها، ولذا يصعب على أي مستشرق أن يتناول موضوعا ما لدراسته منطلقا من فراغ، بل يخضع في الغالب الأعم لقوالب وحدود فكرية وعلمية انصبغ بها مسبقا بسبب موروثه الثقافي الذي يصعب عليه الانفلات منه مهما حاول التظاهر بمستوى ما من الحرية النسبية، وهذه مسألة في غاية الأهمية، وهي تمثل إشكالية حقيقية في الواقع العملي للاستشراق والمستشرق على حد سواء. ومن دلالات هذه الإشكالية أن الاستشراق – فكرة، وأفرادا كانوا أو مؤسسة – ينبغي أن يوضع في حجمه الطبيعي دون إفراط ولا تفريط؛ فلا نغالي في النقد ونتعامل مع الاستشراق على أنه مجرد أكاذيب أو أساطير، ذهبت أو ستذهب أدراج الرياح، فهذه نظرة استهتار

(1) أليكسي جورافسكي: مصدر سبق ذكره، ص 75.

وجهل فظيع بمنظومة فكرية ثقافية علمية دينية وسياسية قائمة في المجامع العلمية والجامعات والكتب والمؤتمرات، ولو كان كل الاستشراق مجموعة أكاذيب لما بقي وبقيت آثاره إلى اليوم فاعلة مؤثرة في العقل المسلم وغير المسلم.

صحيح أن الآراء مختلفة حول مصداقية الاستشراق، ودراسات المستشرقين والأغراض التي سعوا لتحقيقها .. غير أن الإنصاف يقضي بعدم وضعهم جميعا في خانة واحدة؛ إذ منهم المتسامح، ومنهم المتعصب، ومنهم من حالفه الصواب فأنصف الإسلام وحضارته ومنهم من غلب عليه هواه، وقاده إلى استنتاجات خاطئة. وموقفنا هذا لا ينفي أن الريبة قائمة في قسم غير يسير من الاستشراق والمستشرقين الذين كرّسوا إنتاجهم "العلمي" للتشكيك في صحة نبوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وأن القرآن ليس وحيا ولا كتابا سماويا ولكنه من تأليف محمد وبعض أصحابه، وأن مصادره مستقاة من اليهودية والمسيحية، وأن السنة النبوية مصدرها التدليس والوضع نتيجة الانقسامات الداخلية بين المسلمين، وأن الفقه الإسلامي وفقهاءه عالة على القانون الروماني[1]، وإن قلة من المستشرقين من سعى إلى معرفة الحقيقة، ومع ذلك لم يسلم من الاستنتاجات البعيدة عن حقيقة الإسلام، لجهلهم بالإسلام وكتابه ونبيه ولغته وحضارته، أو لهم علم بذلك. وأبوا

(1) وحسبنا في ذلك، المستشرق المجري اليهودي، اجناس جولد تسيهر، وكتابه: العقيدة والشريعة في الإسلام – تاريخ التطور العقدي والتشريعي في الدين الإسلامي، نقله إلى العربية، د.محمد يوسف موسى وآخرون، دار الكتب الحديثة بمصر، ط2، 1959، وما طفح به من إساءات في حق الإسلام كتابا ونبيا وعقيدة وشريعة، من مثل: «ففي مكة كان يشعر أنه نبي....» ص19، «كما صار رهبان المسيحيين وأحبار اليهود موضع مهاجمته، وقد كانوا في الواقع أساتذة له»ص20. «أن بعض الذين مالوا عن دينهم الأول، والذين كانوا يرغبون في مرضاته قد قوّوا فيه عقيدة أن أنصار الدين القديم كانوا قد حرّفوا الكتاب، وأنهم أخفوا البشارات التي جاء بها أنبياء التوراة وأنبياء الإنجيل عن ظهوره في المستقبل. وهذه الشكوى نرى جرثومتها في القرآن، ومن بعده جاءت الكتب الإسلامية وتوسعت فيها توسعا كبيرا» ص19،20 «لقد قرر محمد نفسه أن القرآن عمل معجز لا يمكن الإتيان بمثله، ولذلك ينظر المؤمنون إليه هذه النظرة (...) ويعتبرونه جميعه معجزة إلهية حققت بواسطة النبي .. » ص22.« الصلاة بصورتها الأولى وما يتبعها من وضوء تتصل بالمسيحية الشرقية. وصوم عاشوراء محاكاة للصوم اليهودي الأكبر ثم بعده رمضان. والحج إلى المعبد الوطني العربي القديم في مكة .. هذا الركن احتفظ به محمد عن الوثنية ...» ص24.

إلا إنتاج المعرفة المشوهة، والإصرار على إلحاق أكبر الأذى بالإسلام والمسلمين، وهو المنهج الغربي الخطأ الذي يصعب التخلص منه في تعامل الغرب مع الإسلام.

إشكالية علاقة الاستشراق بمصادر الإسلام:- سبقت الإشارة إلى أن التنصير وإقناع المسلمين بلغاتهم ببطلان الإسلام واجتذابهم إلى المسيحية مثّل جوهر رسالة الاستشراق في بداياته، ويؤكد المستشرق الألماني رودي بارت [RUDI PARET 1901-1983] حقيقة أن العلماء ورجال اللاهوت في العصر الوسيط كانوا يتصلون بالمصادر الأولى في تعرفهم على الإسلام(1)، إلا أنهم كانوا في محاولاتهم تلك محكومين بالأحكام المسبقة في أن الإسلام عدو للمسيحية ولا يمكن أن يكون فيه خير، ويبدو أن رودي بارت لم يكن موفقا في مفاضلته بين تلك الصورة النمطية الظالمة وبين حاضر الاستشراق الذي يقوم – حسب رأيه – بدراسة العلوم العربية والعلوم الإسلامية بدافع التقدير الخاص للعالم الذي يمثله الإسلام(2).

وما يجدر التذكير به – في هذا السياق – هو أن القرآن وتاريخه مثلا أهم مباحث المستشرقين في القديم والحديث؛ فالدراسات القرآنية الاستشراقية كانت ولا تزال تركز على القرآن: نزوله، أدواره، بنيته، تركيبه، قراءاته، لهجاته، كتابته، وتدوينه؛ هذا الاهتمام بالقرآن ودراسته وإن جاء متأخرا نسبيا مقارنة بما عليه حال القرآن عند علمائنا المسلمين، إلا أن اللافت للانتباه هو ما يمكن أن نطلق عليه «الاهتمام الانتقائي» بمسائل معينة وقضايا محددة مبرمجة سلفا لغرض ما؟! لماذا التركيز مثلا على تاريخ القرآن بدلا من بلاغته وإعجازه؟! لماذا التركيز على موضوع القراءة، والقرّاء، وتعدد القراءات؟! لماذا الإصرار على إخضاع «الوحي» مفهوما، وكيفية لجدل المنهج الغربي الذي ينكر الغيب، وينظر إلى الدين على أنه مجرد "ظاهرة بشرية" في التاريخ الإنساني؟!

---

(1) لم يشر رودي بارت إلى القرآن والسنة مثلا، لكن يبدو أنه يقصد ترجمة القرآن إلى اللاتينية التي تمت في تلك الحقبة.

(2) رودي بارت، مصدر سبق ذكره، ص 9، 10.

لا ريب أن مؤسسة الاستشراق لها منهجها، وطبيعتها في فهم القرآن وفي التعامل مع القرآن، وبديهي أن يختلف ذلك المنهج وتلك الطبيعة عن منهج المسلمين وطبيعة فهمهم وتعاملهم مع رسالات السماء وكتبها، ومسك ختامها الإسلام وكتابه القرآن العظيم.

الفارق بين معنى الإسلام لدى المؤمنين به، وبين صورته الظالمة التي يقدمها المستشرقون من خصوم الإسلام يمس جوهر العقيدة الإسلامية ذاتها. ولا ريب أيضا أن هذا الفارق هو ما جعل الصورة النمطية لدى مسيحية القرون الوسطى عن الإسلام دينا وكتابا ونبيا ظلّت في جوهرها دون تغيير، وإنما نفضت عنها ثيابها القديمة، لتضع بدلها ثيابا أقرب إلى العصر، وهو ما يعني- فيما نعتقد – علامة إصرار على المنهج الخطأ.. وما الخوف أو التخويف من الإسلام في الغرب اليوم إلا دليل آخر على التمادي في ذلك المنهج ..

ليس في ديننا، ولا من حقنا أن نفرض حجرا على عقول الآخرين، بل الخلاف كل الخلاف حول أسلوب تناول قضايا معينة ومعالجتها وتقديمها .. الأمر يتعلق – أولا وأخيرا – بحق كل أمة في أن يعرف أبناؤها – ومثقفوها من باب أولى- ما يقوله الآخرون عن حقيقة الإسلام الذي تؤمن به (عقيدة وشريعة وكتابا ونبيا) .. فمن حقنا بل واجبنا أن لا نسكت أمام آلة إنتاج المعرفة المشوهة، وهو ما اقتضى تخصيص الجزء الثاني في هذه المقالة للمستشرق الألماني "تيودور نولدكه" ومدى اقترابه من حقيقة الإسلام عند حديثه عن أصل القرآن – النبوة – الوحي ومصادر تعليم النبي ﷺ.

المستشرق الألماني عميد المستشرقين: تيودور نولدكه وكتابه «تاريخ القرآن»

بدايات الاستشراق الألماني وأهم خصائصه:- قبل الكتابة عن تيودور نولدكه THEODORE NÖLDEKE وكتابه «تاريخ القرآن»، وتحديدا كلامه عن أصل القرآن – النبوة – الوحي ومصادر تعليم النبي ﷺ؛ ينبغي الوقوف على بدايات

الاستشراق الألماني وأهم خصائصه، آملين الوصول – من خلال هذه العينة الاستشراقية – إلى إجابة واضحة عن السؤال المحوري لهذه المقالة وهو: ما مدى اقتراب المستشرقين من حقيقة الإسلام؟ ترجع صلة ألمانيا بالعالم العربي إلى القرن الثاني عشر الميلادي، أي إلى زمن الحروب الصليبية التي جاءت من أوروبا إلى المشرق العربي لأسباب دينية ظاهرة، وإن لم يكن لهذه الحروب أثر مباشر في نشأة الدراسات الاستشراقية في ألمانيا، والتي لم تبدأ في زمن مبكر مقارنة بالدول الأوروبية الأخرى؛ فألمانيا بعيدة عن العالم العربي بالنسبة إلى إيطاليا أو إسبانيا، وهي لم تكن لها روابط استعمارية مع العالم العربي كبريطانيا أو فرنسا بصورة خاصة. ولم تنشط الدراسات العربية في ألمانيا إلا في القرن الثامن عشر (18) الميلادي، بدءً بجمع المخطوطات العربية، وفهرستها، ونشرها، ووضع المعاجم العربية. كما قام المستشرقون الألمان البارزون بالتدريس في بعض الجامعات العربية، وخاصة جامعة القاهرة (أمثال ليتمان، وشاخت)، واهتم الألمان بإنشاء معاهد ثقافية، وأخرى للتنقيب عن الآثار في بعض البلدان العربية كبيروت وبغداد والقاهرة.

ويبدو من دراسة عوامل اهتمام الألمان بالإسلام كدين، وبالمسلمين والعرب تحديدا كوحدة بشرية متميزة؛ أن جذور هذا الاهتمام تعود في الأساس إلى صدمة قومية تداخلت فيها الانفعالات الدينية بعنف وإلحاح نتيجة الاندفاع العثماني في وسط أوروبا في أواسط القرن الخامس عشر الميلادي[1]. وما كادت أوروبا تسترد أنفاسها بعد وقف هذا الاندفاع العثماني على أبواب مدينة فيينا عاصمة النمسا في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادي؛ حتى شعرت الكنيسة بأن عليها أن تهتم بالعقيدة الدينية التي أطلقت المارد التركي من عقاله وسارت به قدما تجاه أوروبا يجتاحها بلدا بعد آخر، دون أن يتمكن أيٌّ من البلاد الأوروبية بمفرده من

(1) وراجع: الشيخ طه الولي، الإسلام والمسلمون في ألمانيا بين الأمس واليوم، دار الفتح، بيروت، ط1، 1966، ص21.

صد هذا المارد، وإيقاف زحفه المخيف[1] وعندما تنادت الكنائس المسيحية للاتحاد المقدس والدعوة لحماية «الإيمان» تجاوبت معها سائر المحافل الأوروبية، وأقبلت على الاهتمام بلغات العالم الإسلامي وأولها اللغة العربية، وقد كان من أوائل من تصدى لتعلمها باعتبارها لغة القرآن التي لا يفهم بغيرها –العلماء من أحبار الكنيسة المسيحية يحدوهم أمل مباشر شد اهتمامهم وهو الرد على الإسلام من خلال ترجمة القرآن إلى اللاتينية، و«هداية» المسلمين بواسطة ترجمة عربية للإنجيل وغيره من الكتب الدينية المسيحية الأخرى، وهو ما يعني في صراحة ووضوح أن هؤلاء الأحبار لم يكن هدفهم من تعلم اللغة العربية ولغات العالم الإسلامي رغبة ما بالتحقيق العلمي المجرد أو الدراسة الموضوعية الخالصة، بقدر ما كان للردّ والمقاومة وتدمير الخصم «الإسلام».

خصائص الاستشراق الألماني التي تفرد بها عن سائر الدول الأوروبية:

- اهتمامه باللغات الشرقية نابع من ارتباط هذا الاستشراق بعلم اللاهوت بداية، حيث اللغة العبرية كانت هي جوهر الدراسات الاستشراقية الألمانية، ثم ما لبثت اللغة العربية، وما لبث الإسلام أن لقيا اهتماما ألمانيا بعد الدخول في عصر التنوير الأوروبي والخروج من حقبة القرون الوسطى.

- يغلب على الاستشراق الألماني اهتمامه بالتراث العربي القديم، والتركيز على خدمة هذا التراث، رغم ما سجل على الدراسات الاستشراقية الألمانية من إساءتها إلى العرب والمسلمين – عن قصد أو غير قصد – خاصة فيما يتعلق بمصدر القرآن تحديدا[2].

(1) ويبدو واضحا أن هذا الواقع التاريخي لا يزال يؤثر في تشكيل صورة الإسلام في أوروبا إلى يومنا هذا .. وما أمر قبول تركيا في الاتحاد الأوروبي من عدمه عنا ببعيد ..

(2) وراجع لاحقا: كلام تيودور نولدكه عن أصل القرآن: النبوة – الوحي ومصادر تعليم النبي ﷺ– في هذه المقالة.

- الاستشراق الألماني –في عمومه وفي حدود علمنا– غلب عليه الطابع العلمي والتحلي بالموضوعية إلى درجة لا يستهان بها، والدراسات الاستشراقية الألمانية لم تصبها لوثة الاستعلاء والنفرة والتحامل على العرب والإسلام، وهذا ما جعلها جديرة بنشر الثقافة الإسلامية، وبيان حضارة الإسلام في الغرب ..

- وما سبقت الإشارة إليه من أن ألمانيا لم تكن لها روابط استعمارية بالعالم العربي على غرار بريطانيا وفرنسا؛ لا يعني بالضرورة وفي جميع الأحوال انعدام العامل الأساسي، فالاستشراق الألماني كغيره في بلدان أوروبية أخرى، ينتمي– في نهاية المطاف – إلى دولة لها مؤسساتها، ومصالحها، وأهدافها(1)؛ ومن الصعب تصور الفصل التام بين الاستشراق والسياسة، وإن كان في المسألة من فارق فهو في النأي بالنفس في الاستشراق الألماني عن عقدة الاستعلاء والتحامل على العرب والإسلام، حيث تبدو المدرسة الاستشراقية الألمانية أقرب كثيرا إلى الموضوعية والرغبة الجامحة في التعرف على الآخر وخدمة تراثه من مدارس الاستشراق الأخرى.

من أعمال المستشرقين الألمان البارزة:

كتاب «تاريخ القرآن» لـ«تيودور نولدكه»THEODORE NÖLDEKE فمن هو هذا المستشرق الذي حاز سمعة كبيرة وشهرة عالية بل ومشيخة في عالم الاستشراق والدراسات القرآنية في الغرب؟ وما أهمية كتابه «تاريخ القرآن»؟ وما مدى اقترابه من حقيقة الإسلام؟

في سياق الإجابة عن مثل هذه الأسئلة ينبغي تسليط الضوء على شخصية نولدكه (مولده – أسرته) تكوينه الثقافي والنفسي، أهم أعماله، ومكانته العلمية ..

(1) ولا أدل على ذلك من «معهد همبرج الاستعماري» الذي أنشأته الحكومة الألمانية لدراسة المسائل الخاصة بالاستعمار، ولتكوين طبقة من القادرين على إدارة شؤون المستعمرات، والخبراء بأحوال الأمم المستعمرة. وراجع: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط4، 2003، ص115.

لعل ذلك يساعدنا أكثر في فهم أفكاره وانطباعاته وما كتبه عن أصـــل القـــرآن: النبوة- الوحي ومصادر تعليم النبي ﷺ.

مولده وأسرته: ولد تيودور نولدكه في الثاني من شهر مـــارس عـــام 1836م بمدينة هاربورغ HERBURG (ضمت إلى إقليم هامبورج منذ عـــام 1977)، حيث كان والده مدير مدرسة هناك وينحدر من عائلة عريقة أعطت ألمانيا أساتذة وموظفين ورجال دين. أيقظ الوالد بصفته عالما في اللغات القديمة رغبة جامحـــة في ولده "تيودور" في تحصيل علوم الأقدمين ما لبث أن لازمته طيلة حياته.

تعليمه: اكتشف تيودور نولدكه أن ميدان اللغات السامية لا يزال بكـــرا وأن اقتحامه يمكن من الوصول إلى اكتشافات مهمـــة في مثـــل هـــذا النـــوع مـــن التخصصات؛ فعرف عنه تضلعه في اللغات السامية، والعربية، والفارسية والتركية والحبشية والآرامية فضلا عن إتقانه اليونانية واللاتينية والألمانية والفرنسية والإسبانية والانجليزية والإيطالية[(1)].

من المحطات الفارقة في مشواره الدراسي، انقطاعه عن الدراســـة – لأســـباب صحية – في المرحلة الثانوية، الأمر الذي حفزه للانكباب على دراسة اللغتين العبرية والعربية وآدابهما[(2)].

من أعماله الجامعية: أنه عين في شهر يناير 1861 معيدا في جامعة غـــوتنجن الشهيرة، وكلف بتدريس اللغة العربية، وإلقاء دروس في "المشناه"[(3)] وتفاسير العهد القديم. وفي الفترة من 1872 إلى 1920 كان قد انتقل إلى جامعة ستراسبورغ، حيث درس عليه عدد غير قليل من المستشرقين الألمان والأوروبيين، كمـــا كـــان

(1) نجيب العقيقي، المستشرقون، ج2، دار المعارف، ط4، القاهرة، 1980، ص379 وما بعدها.

(2) د.بدوي، مصدر سبق ذكره، ص598.

(3) المشناه: مجموعة موسوعية من الشروح والتفاسير خاصة بالعهد القديم، وتتضمن مجموعة من الشرائع اليهودية التي وضعها معلمو الميشناه على مدى ستة أجيال.

لتعيينه في جامعة كييل Kiel أستاذا للغات السامية في الفتـــرة مـــن 1864 إلى 1872 تأثير قوي في انكبابه على اللغات السامية، وإن لم يصـــرفه ذلـــك عـــن الاستمرار في دراساته المتعلقة بالعهد القديم والكتاب المقدس، وكتابته المقـــالات العديدة في هذا الباب.

وفاته:- في ربيع 1920 رحل تيودور نولدكه إلى مدينة كارلسروهه في منطقة الراين الأعلى، حيث أقام في مترل أحد أبنائه الذي كان يشـــغل منصـــب مـــدير السكك الحديدية في تلك المنطقة، إلى أن وافاه الأجل المحتوم في 25 ديسمبر عـــام 1930، وقبل ذلك توفيت زوجته عام 1916 بعد حياة زوجية دامـــت اثـــنين وخمسين عاما، أنجبا خلالها عشرة من الأبناء والبنات، توفي منهم ستة قبل وفـــاة والدهم تيودور نولدكه[1].

مكانته العلمية وأهم آثاره في الدراسات القرآنية الاستشراقية:-

يعد تيودور نولدكه عميد المستشرقين غير مدافع. وقد أتاح له نشاطه الدائب، وألمعية ذهنه واطلاعه الواسع على الآداب اليونانية، وإتقانه التام لثلاث من اللغات السامية (العربية والعبرية والسريانية) مع استطالة عمره حتى جاوز الرابعة والتسعين، أن يظفر بهذه المكانة، ليس فقط بين المستشرقين الألمان، بـــل بـــين المستشـــرقين جميعا[2]. وصفه المستشرق الألماني «يوهان فيك» بالذكاء الحاد والفكر الثاقـــب والذاكرة القوية، فهو لغوي ومؤلف ومترجم ونحـــوي وناقـــد .. إنـــه أعظـــم المستشرقين الألمان في عصره. وقال عن المستشرق الألماني رودي بارت (صـــاحب أشهر ترجمة ألمانية لمعاني القرآن في ألمانيا): «تيودور نولدكه أســـتاذ الاستشـــراق الجليل الذي حظي باحترام عالمي في مادته» و«ما ضل مـــن انضـــوى لقيادتـــه

---

(1) د. بدوي، مصدر سبق ذكره، ص 598.

(2) المصدر نفسه، من 597 وما بعدها.

العلمية»[1]!!، ووصفه المستشرق المجري اليهودي **جولد تسيهر** بأنه «زعيمنا الأكبر».

إذا كانت هذه هي مكانة نولدكه بين زملائه وأقرانه من بني قومه وأتباع ملته، فقد حاز إعجاب عدد غير قليل من الباحثين والعلماء العرب والمسلمين، فصاحب موسوعة المستشرقين وصفه بأنه «شيخ المستشرقين غير مدافع»، وأنه يعبر عما يريد بعبارات واضحة» و«إذا حدث بشيء صدق» ووصفه آخرون بأنه «رزق الموهبة الإلهية»فضلا «طهارة قلبه!!» [2]و«أنه لم يتجن على الإسلام في أبحاثه .. ولهذا جاءت آراؤه واضحة جلية .. بعيدة عن الهوى والتضليل»[3].

هذه مكانة نولدكه العلمية عند المعجبين به.. فهل السمعة الكبيرة والشهرة الفائقة والمشيخة الاستشراقية تعني كلها بالضرورة العصمة من الوقوع في خطأ؟

أبرز آثاره العلمية كتابه «تاريخ القرآن»[4]: – وهذا الكتاب في أصله رسالة دكتوراه باللغة اللاتينية بعنوان «حول نشوء وتركيب السور القرآنية» تقدم بها نولدكه عام 1856 إلى جامعة جوتنجن، وحصل بالفعل على الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى، كما حصل نولدكه عام 1858 بهذه الرسالة على جائزة من فرنسا خصصت لأفضل كتاب ألف في أوروبا عن كتاب مقدس، ثم عكف بعد ذلك على إعادة كتابتها باللغة الألمانية بمفرده وصدرت كطبعة أولى سنة 1860م تحت عنوان «تاريخ القرآن». والنسخة التي بين أيدينا (الترجمة العربية) تقع في 779 صفحة، وتتألف من مجموعة مقدمات حول طبعات الكتاب، وثلاثة أجزاء

(1) رودي بارت، مصدر سبق ذكره، ص14.

(2) المستشرق يوهان فيك، تعريب عمر لطفي العالم، تاريخ حركة الاستشراق، الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين – دار قتيبة، دمشق، ط1،1996، ص232.

(3) د.ميشال جحا: الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، معهد الإنماء العربي، بيروت، ط1، 1982، ص199.

(4) تيودور نولدكه، تعديل فريديريش شوفالي، تعريب: د. جورج تامر وآخرون، منشورات الجمل، كولونيا (ألمانيا)، بغداد، ط2، 2008.

رئيسية، عنوان الأول منها: أصل القرآن – النبوة – الوحي ومصادر تعليم النبي صلى الله عليه وسلم، وهو مرتكز هذه المقالة، ثم يليه الجزء الثاني وعنوانه: جمع القرآن ويتناول فيه حفظ الوحي وتدوينه، وحفاظه، ومنهجه حتى "نشوء نسخة القرآن الرسمية في عهد الخليفة عثمان، وقضايا أخرى يثيرها جمع القرآن وتوثيقه. وفي الجزء الثالث: عرض لتاريخ النص القرآني – الرسم – القراءة – القراء والقراءات – مخطوطات القرآن: تاريخها – أماكنها – كتابتها، كما تضمن هذا السفر الكبير ثبتا بأهم الدراسات القرآنية التي صدرت خاصة باللغة الألمانية.

أهمية كتاب «تاريخ القرآن»: – تبرز أهمية هذا الكتاب في أنه عرض تاريخي مفصل لكل المسائل والموضوعات التي تتصل بالقرآن العظيم، منذ نزول الوحي، وحتى صدور آخر طبعة للقرآن في عصر المؤلف، فأضحى أحد أهم المصادر التي لا يستغني عنها باحث، وهو كتاب جامع غني بالمصادر العربية وغير العربية، الشهيرة والمغمورة على حد سواء. وقد تميز نولدكه بقدرة علمية فائقة على الاستفادة من هذه المصادر، غير أنه وظف معارفه المكتسبة منها في الاتجاه الغالب على الاستشراق في التعامل مع حقيقة الإسلام دينا وكتابا ونبيا.

إن ما سبق عرضه من مؤهلات الرجل ومواهبه، والذي اقتبسناه من مجموعة مصادر ومراجع متنوعة، يوضح لنا مدى تنوع ثقافة تيودور نولدكه، وأنه يحوز كمًّا معرفيا هائلا في الدراسات القرآنية الاستشراقية .. سنرى فيما يأتي هل استطاعت تلك المواهب المعرفية حول القرآن والنبي الخاتم ﷺ أن تبدد ما تراكم عبر القرون من موروث مسيحية القرون الوسطى والمنهج الغربي في التعامل مع الإسلام؟ أم أن القاعدة المطردة هنا هي: أن المعرفة شيء والإنصاف شيء آخر؟

النبوة – الوحي ومصادر تعليم النبي ﷺ عند نولدكه-:

اعتبر كتاب «تاريخ القرآن» في نظر بعض المستشرقين "هزة مدوية" حيث عولجت فيه بذكاء مسألة نشأة القرآن وجمعه وروايته، وأنه يمي بكل متطلبات

العلم .. وأغرى الإعجاب الاستشراقي بعض الباحثين والكتاب العرب والمسلمين فأثنوا وبشكل مطلق على الكتاب، ورأوا فيه تحولا عظيما في تصحيح مفاهيم الغرب عن الإسلام، وأنه دليل على طريق البحث العلمي الصحيح في الدراسات القرآنية(1).

ثمة ملاحظة عامة حول أبحاث الكتاب؛ فقد سعى تيودور نولدكه إلى التاريخ للنص القرآني باعتباره وثيقة من وثائق التاريخ الإنساني، محاولا ربط النص القرآني بالبيئة التي نشأ فيها كظاهرة بشرية منطلقا من المنهج العلمي الغربي الذي يفسر الأديان على أنها ظاهرة اجتماعية ظهرت كما ظهرت الجماعات البشرية وأنها لم تنزل من السماء. ولا ريب أن هذه قاعدة لا يقرها منهج الفكر الإسلامي، لأنها بعيدة الأثر في النتائج التي تترتب عليها، لأنها تنكر الوحي والنبوة والقيم الثابتة في الدين كما تنكر عالم الغيب ويوم البعث .. أخطر أدوات هذا المنهج الغربي أنه يقارن بين الدين وبين ما توارثته الشعوب المختلفة من أساطير، وصولا إلى استنتاج مفاده أن الأديان ليست إلا مجموعة من الأساطير والخرافات التي لا تصلح إلا للتلهية وإمتاع الخيال(2).

شيخ المستشرقين إذا ما ارتأى الاعتراف بصدق نبوة محمد ﷺ؛ فإنه يقرن هذا الاعتراف بإرجاع الإسلام إلى أصول يهودية ومسيحية. وهذه الازدواجية نجدها عند المستشرقين الذين توصلوا مع أنفسهم إلى "توافق" ما على قبول صدق محمد في نبوته والاعتراف بأنه دعا إلى دين جديد متميز تميزا أساسيا، ثم يعودون ليؤكدوا في الوقت نفسه أن رسالة محمد لم تكن كلها من مصدر إلهي. يقول تيودور نولدكه:

---

(1) فضلا عن أن فريق المترجمين تحمل مسؤولية أدبية بتزكية الكتاب وأن الغرض منه ليس الحط من قدر القرآن الكريم والنبي محمد، وأن الكتاب محاولة صادقة لاستكشاف مضامين الكتاب العزيز .. فكيف والحال على غير ما قالوا؟!!

(2) أنور الجندي، أخطاء المنهج الغربي الوافد في العقائد والتاريخ والحضارة واللغة والأدب والاجتماع، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982، ص73.

«إن المصدر الرئيسي للوحي الذي نزل على النبي حرفيا، بحسب إيمان المسلمين البسيط وبحسب اعتقاد القرون الوسطى هو بدون شك ما تحمله الكتابات اليهودية: وتعاليم محمد في جلها تنطوي في أقدم السور على ما يشير بلا لبس إلى مصدرها. لهذا، لا لزوم للتحليل لنكتشف أن أكثر قصص الأنبياء في القرآن، لا بل الكثير من التعاليم والفروض هي ذات أصل يهودي»[1]

خطأ الاستشراق وخطره أنه يدرس الإسلام عقيدة وشريعة نبوة ووحيا بوجهة نظر مسبقة، وبأحكام مقررة وبأهداف واضحة أساسها التشكيك في صدق نبوة محمد ﷺ. وهكذا، فالنبوة تصدر بالإجمال- حسب تحليل شيخ المستشرقين - «من المخيلة المنفعلة وموحيات الشعور المباشرة، أكثر مما تصدر من العقل النظري، غير أن محمدا (ﷺ) كان يفتقر إلى هذا بشكل خاص (...) لهذا السبب اعتبر ما حرّك نفسه أمرا موحى به، متزلا من السماء، و لم يختبر اعتقاده إطلاقا، بل اتبع الغريزة التي اعتبرها صوت الله الذي أتاه، وهذا ما ينتج الفهم الحرفي الظاهر للوحي الذي يقوم عليه الإسلام»[2]

شيخ المستشرقين نولدكه يتهم نبينا محمد ﷺ بأنه «أعلن عن سور القرآن، أعدها بتفكير واع وبواسطة استخدام قصص من مصادر غريبة مثبتة، وكأنها وحي حقيقي من الله»[3] ويذهب في استدلاله وتطاوله مذهبا غريبا، فيستشهد بانتحال "أنبياء الشعب الإسرائيلي" الذين نشروا منتجاتهم الأدبية على أنها "كلمات رب الصباؤوت" ليخلص إلى أن صياغة كهذه لم تنتج إجمالا من اعتماد الخداع، بل من الاعتقاد الساذج؛ فالأنبياء – حسب تحليل شيخ المستشرقين – ليسوا مجرد وسطاء للألوهية أثناء الغيبوبة، بل إن كل تفكيرهم وعملهم يظهر لهم انسكابا مباشرا

(1) تيودور نولدكه، مصدر سبق ذكره، ص7.

(2) المصدر نفسه، ص5، 6.

(3) نولدكه، مصدر سبق ذكره، ص6.

للفعل الإلهي[1].

ولأن محمدا (ﷺ) عند نولدكه مجرد "مفكر بسيط" لم يكن بوسعه أن يفصل بين الروحيات والدنيويات؛ فغالبا ما استخدم سلطة القرآن ليفرض أمورا لا علاقة لها بالدين، وأنه "لم يتوان عن استخدام وسائل مرذولة، أجل حتى ما يسمى الخداع باسم الدين من أجل نشر ما آمن به، إلا أن الكتّاب المسلمين يخفون ذلك"[2].

نولدكه والدعوة للاعتراف بالتأثير اليهودي المسيحي في النبوة الخاتمة: يذكرنا تيودور نولدكه بحضور واسع لليهود في أماكن عدة من شبه الجزيرة العربية، (خاصة يثرب)، وترددهم المكثف على مكة، وأن مسيحية الفرق الشرقية نفسها ذات طابع يهودي بارز، ورغم ما كان للعهد القديم من أهمية سيما في ما يتعلق بالتعليم والبنيان الروحي، فالمسيحية هي الأخرى كانت على انتشار واسع في شبه الجزيرة العربية؛ ولذلك، يطالبنا شيخ المستشرقين بالإذعان للواقع والاعتراف بالتأثير اليهودي المسيحي على النبي محمد (ﷺ)؟!!

وللتأكيد على أهمية هذا الاعتراف يذكر أمثلة لذلك التأثير اليهودي المسيحي:

التهجد، بعض أشكال الصلاة، وصف الوحي بالفرقان، وهو ما يراه مشتقا من اللغة الآرامية المسيحية (فرقان بمعنى خلاص)، الأهمية التي يحوزها اليوم الآخر، والمكانة السامية التي يحتلها يسوع فوق كل الأنبياء، ليخلص بعد ذلك إلى أن الإسلام في جوهره يقتفي آثار المسيحية[3].

وفي سياق الدعوة للاعتراف بتأثير اليهودية والمسيحية في تعليم النبي ﷺ، يثير نولدكه مسألة شكل الأدب الديني عند اليهود والمسيحيين العرب في ذلك الحين

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه، ص8.

وكميته، فيؤكد أن المسيحيين العرب لم يكن لهم إلا معرفة سطحية بالمسيحية ويستشهد لذلك بمقولة تنسب للإمام علي (﵁) مفادها أن بني تغلب ليسوا مسيحيين وليس لهم من المسيحية إلا شرب الخمر، ليستنتج أن هؤلاء اليهود والمسيحيين العرب قد أخذوا معهم إلى حيث ذهبوا بعض الكتابات الدينية باللغة العبرية، أو الآرامية أو الأثيوبية وربما باللغة اليونانية أيضا. وقد وجب على رجال الدين اليهود والمسيحيين أن يترجموا الوصايا والصلوات والأناشيد والعظات إلى اللغة العربية .. ولا يستبعد نولدكه أن تكون تلك الترجمات الشفوية قد ابتدئ بتدوينها قبل الإسلام .. وبما أن فن الكتابة كان معروفا لدى المكيين والمدنيين في زمن محمد؛ فإنه ليس من المستبعد أن تكون العربية قد استعملت أيضا لتدوين نتاج الشعراء والمغنيين والقصاصين[1]. ورغم أن فرضيات كهذه تحتاج إلى البينة والدليل المستقيم على صحتها؛ فإن شيخ المستشرقين يتخذ منها تكئة للقول بأن لليهودية والمسيحية حضورا قوي في الذاكرة العربية، من خلال الأدب الديني اليهودي المسيحي، ومن ثم كان تأثيره في الوحي الذي هو من صنع محمد في الجزيرة العربية!!!

نولدكه شديد الاهتمام بالمصادر الشفوية في تعليم محمد (ﷺ):

يعترف نولدكه بأن النبي محمدا لا يعرف القراءة ولا الكتابة؛ ومع ذلك يجنح إلى ازدواجية استشراقية توحي بالمكر والدهاء يرى أن محمدا لم يشأ أن يعتبر عارفا بالقراءة والكتابة (وفرق كبير بين أن يكون غير عارف بالقراءة والكتابة وبين أن لا يرغب في أن يكون معروفا بمعرفتهما. ولا ريب في أن عبارة نولدكه "لم يشأ" توحي بنية سيئة ماكرة في حق النبي ﷺ، ثم يضيف: ولهذا السبب أوكل آخرين بقراءة القرآن ورسائله، وأنه تقبّل أهم أجزاء تعليمه من اليهود والمسيحيين شفويا

(1) نولدكه، مصدر سابق ذكره، ص10، 11.

على الأرجح. والغريب في هذه الفرضية هو جرأة نولدكه في إقحام بعض آيـــات القرآن العظيم لتصحيح فرضيته التي لا تصح بحال[1].

ولا يفوت نولدكه – في خضم اهتمامه بالمصادر الشفوية في تعليم محمـــد (ﷺ) أن يذكر زيد بن عمرو بن نفيل الذي يصفه بمقاوم عبادة الأصنام في مكـــة قبـــل ظهور محمد، وأمية بن أبي الصلت الثقفي؛ للإيحاء بأن محمدا نهل مثلهما من معين الروايات اليهودية والمسيحية، وليستنتج في السياق نفسه أنه ما من مصلح يمكنه أن يتنصل تماما من المعتقدات التي تربى عليها قومه "هكذا بقي لدى مؤسس الإسلام بعض الأساطير القديمة حول الجن، أما الطقوس الممارسة في الكعبة والحج، فقد قام محمد بتعديلها لتلائم تعليمه"[2]

وليقطع شيخ المستشرقين الشك باليقين حول رؤيته لمصادر تعليم محمـــد (ﷺ) يقول "إن الدين الجديد [3] الذي قدر له أن يهز العالم كله، انصهر في وجدان محمد من مواد مختلفة. ما أضافه هو إلى ذلك يقل أهمية عما أخذه عن الآخرين، ما عدا التعليم الأساسي الثاني في الإسلام (يريد الشطر الثاني من الشهادة)" ألا وهو شهادة ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ [سورة الفتح: الآية 29]. والقرآن يمنح هذه الصفة للكـــثير مـــن رجالات الله في الماضي وهم نوح وإسرائيل ولوط ويترون (شـــعيب) وموســـى وهارون وعيسى وهود وصالح. لكن محمدا يضع نفسه في مرتبة أسمى منـــهم، إذ يدّعي لنبوته معنى ختاميا [سورة الأحزاب: الآية 40] "﴿ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾.

---

(1) من ذلك: الآية 4 من سورة الفرقـــان ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ ﴾ والآية 103 من سورة النحل ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ ... ﴾ وراجع: نولدكه، المصدر نفسه، ص16.

(2) نولدكه، مصدر سبق ذكره، ص18.

(3) يشير نولدكه إلى أن كلمتي "دين" الفارسية و"ملة" الآرمية هما من أصل أجنبي، في حين يتصف الوصف "إسلام" (الوارد في آل عمران/17، 19، 79، 85، والأنعام/125، والتوبة/75،74، والزمر/22، 23، والحجرات/17، والصف/7) بأنه عربي أصيل وقد وضعه محمد نفسه لدينه إلى جانب الاستعمال المطلق (15) مرة للفعل "أسلم"، توجد أيضا العبـــارة "وجهـــه لله" (4 مرات) أو مع "رب العالمين" (4 مرات). وراجع: نولدكه، مصدر سبق ذكره، ص19.

حول الوحي الذي تلقاه محمد:- يستعرض نولدكه أنواع الوحي معتمدا في ذلك على كتاب "الإتقان في علوم القرآن" للإمام السيوطي، ثم كتاب "المواهب اللدنية بالمنح المحمدية" للقسطلاني، ويصدر عن نية مبيتة وسبق إصرار بتوظيف ما توافر لديه من معلومات وفق المنهج الاستشراقي الغالب: التشكيك في صدق نبوة خاتم النبيين، فيشير إلى أن محمدا (ﷺ) كان يعاني نوعا من الصرع. وبما أن فقدان الذاكرة هو أحد عوارض داء الصرع العقلي فمن الضروري أن نصف ما كان يغشاه بحالة من الاضطراب الشديد، يقال إن محمدا كان يعاني منها منذ حداثته (..) وبما أن الغيبوبة كانت على الأرجح تعتريه فجأة، حين كان غارقا في تفكير عميق، فقد اعتقد أن قوة إلهية كانت تحل فيه[1]!!

يوغل شيخ المستشرقين في التشكيك في طبيعة الوحي الجلي للقرآن، وأن محمدا (ﷺ) كانت له اليد الطولى في التصرف في النص القرآني بالزيادة والنقصان، وأنه منح المقاطع القرآنية شكلها النهائي، ويستدل على فرضيته هذه بقصة يرويها المفسرون تعليقا على آية في سورة الأنعام[2]، حين أملى محمد مطلع سورة "المؤمنون"[3] على عبد الله بن أبي السرح الذي كان يستخدمه أحيانا ككاتب للوحي، أصيب عبد الله هذا بالاندهاش من وصف قدرة الله الخالق، فصاح "فتبارك الله أحسن الخالقين"، فأمره النبي أن يكتبها لأنها هكذا أنزلت. ثم يعلق نولدكه على القصة قائلا: "يتضح لنا أن كلمات عبد الله بدت لمحمد ملائمة فاتخذها في هذا الموضع ارتجالا"[4] ويصف الروايات المتعلقة بالترتيب الحالي لآيات القرآن وسورة بأنها نشأت عن اعتقاد خرافي مفاده أن هذا الترتيب ذو أصل سماوي[5]. ويتمادى

(1) المصدر نفسه، ص 22، 23.

(2) وهي قول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ .. ﴾ **[الأنعام/93]**.

(3)﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ المؤمنون/12-14.

(4) نولدكه، مصدر سبق ذكره، ص 43.

(5) المصدر نفسه، ص 42.

نولدكه في غيه وتطاوله على مقام النبوة والنبي الخاتم ﷺ، فيصفه "بأنه الرجل غير المتعلم الذي لم يعرف تعظيم الحرف بتاتا"، ويتهمه بقصر النظر، لأن تفكـيره لم يسعفه في تصور المنحى الذي سيأخذه الإسلام بعد وفاته!! وأنه آثر السلطة والدنيا على الدين بحيث أنه " لم يشغله مصير القرآن بقدر ما فكر في اختيار من يخلفه وفي تهكم سافر يضيف " لم يكن ممكنا لمؤلف القرآن أن يقوم بجمعه كاملا"[(1)] يعني في حياته.

يستكمل نولدكه رؤيته للوحي بما أسماه "القرآن المحمدي" وعلاقتـه بالكتـب المقدسة اليهودية والمسيحية؛ ليستنتج أن "الكتاب المقدس المحمدي" نشأ بطريقـة مختلفة ومعاكسة تماما؛ فهو ليس عمل كتاب عديدين بل عمل رجـل واحـد. فبالرغم من أن محمدا – حسب رأي نولدكه – هو موضوعيا وفعليا مؤلف الآيات والسور الموضوعة في هذا الكتاب، فهو لا يعتبر نفسه صاحبها، بل الناطق باسم الله والمبلغ كلامه وإرادته. لهذا السبب لا يتكلم في القرآن إلا الله، والله وحده. لا يسع المتخصص في تاريخ الأديان إلا أن يرى في هذا الأمر وهْما. لكـن الـنبي كـان متحمسا حماسا بالغا واعتقد جديا بالأصل الإلهي للآيات والسور، وآمن أتباعـه بذلك"[(2)].

ويأبى تيودور نولدكه إلا أن يمتد سياق إساءاته – بعد الوحي ومن نزل عليـه الوحي – إلى بيت النبوة، سيما أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فهـي عنـده المرجع في أكثر من ألف ومائتي (1200) حديث، وأنها عاشت ثماني (8) سنوات مع محمد كزوجة له وكان عمرها ثمانية عشر (18) عاما عند وفاته، وأنها نضجت وصارت إحدى الشخصيات وهي أرملة، ويضيف "ما نعرفه عن حياتها وتصرفاتها فيما بعد بوصفها تدس المؤامرات السياسية من دون إعمال الضمير يجعـل الثقـة

(1) المصدر نفسه، ص44.

(2) نولدكه، مصدر سبق ذكره، ص342، 343.

برواياتها أكثر من مشكوك فيه. لكنها تحظى لدى المسلمين بمقام رفيع شبه مقدس بوصفها "أم المؤمنين" و"أحب زوجات النبي إلى قلبه"[1].

تعليق عام على الجزء الأول من «كتاب تاريخ القرآن»: - لم يكن غرضنا في هذه المقالة مناقشة المؤلف أو تفنيد ما تضمنه من أفكار وفرضيات حول أصل القرآن – النبوة والوحي ومصادر تعليم النبي ﷺ– فهذا أمر له مقام آخر غير الذي نحن بصدده – بقدر ما كان الوقوف على مدى موضوعية المؤلف واقترابه من حقيقة الإسلام في ما يتعلق بالوحي ومصادر تعليم النبي ﷺولا شك أن المسلم الذي يقرأ ما قاله تيودور نولدكه عن القرآن ومن نزل عليه القرآن، يجد في نفسه حيرة وتعجبا عن السبب الذي يؤدي بإنسان على هذا القدر من الاجتهاد في العلم إلى مثل تلك الفرضيات والحجج المتهافتة. ولكن الحقيقة التي: يجب الانتباه إليها أن الخلل يرجع بالأساس إلى منهج عام لدى الغربيين ومن تأثر بهم. فالمنهج العلمي عندهم لا يمكنه إثبات الوحي ولا الاعتراف به .. وإذا أضفنا إلى ذلك أن مؤلف الكتاب – على ما حاز من سمعة كبيرة وشهرة عالية ومشيخة استشراقية – لا يؤمن لا بصحة مرويات السنة، ولا بصدق نبوة محمد ﷺكما يعتقدها المسلمون، ولا بالوحي – نعرف في أي ظلمة يتخبط من يسير في هذا الطريق. وإذا أخذنا في اعتبارنا الاختلاف الحضاري والبيئي والزمني بين المؤلف والبيئة التي يدرسها لعلمنا صعوبة المسألة، هذا كله على افتراض أن المؤلف استطاع أن يتجرد من أحكامه المسبقة عن الإسلام والتي نشأ عليها – وهو ما لم يتحقق – كما اتضح لنا من أفكاره وفرضياته وأحكامه حول النبوة والوحي ومصادر تعليم النبي صلى الله عليه وسلم.

وإذا كنا قد عرضنا الأسباب التي رأيناها سببا في بعد المستشرق الألماني عن

(1) المصدر نفسه، ص349.

حقيقة الإسلام؛ فإننا نستطيع أن نفهم أن المشكلة في الاستشراق مـــع الإســـلام ليست في المعرفة ذاتها أو في تراكمها الهائل؛ بقدر ما هـــي في إنصـــاف الآخـــر والاعتراف به ... العسير على التفسير هو منطق نقل كل ما يقوله الغرب بكـــل إجلال وتقدير ويقين لا يجرؤ المؤلف الأصلي على ادعائه !!!

ثبت المصادر والمراجع:

1- القرآن الكريم

2-العهد القديم (الكتاب المقدس) (سفر دانيال) دار المشرق، بيروت، ط3، 1988.

3-ابن إبراهيم الطيب، الاستشراق الفرنسي وتعدد مهامه خاصة في الجزائر، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر، 2009.

4-أليكسي جورافسكي، ترجمة د.خلف محمد الجراد، الإسلام والمسيحية: من التنافس والتصادم إلى آفاق الحوار والتفاهم، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1969.

5-إدوارد سعيد، ترجمة كمال أبو ديب، الاستشراق (المعرفة – السلطة – الإنشاء)، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط8، 2010.

6-العقيقي نجيب، المستشرقون، ج2، دار المعارف، ط4، القاهرة، 1980.

7-الجندي أنور، أخطاء المنهج الغربي الوافد في العقائد والتاريخ والحضارة واللغة والأدب والاجتماع، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982.

8-تيودور نولدكه، تعديل فريدريش شوفالي، تعريب، د.جورج تامر وآخرون، تاريخ القرآن، منشورات الجمل، كولونيا (ألمانيا)، ط2، 2008.

9-جحا ميشال، الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، معهد الإنماء العربي، بيروت، ط1، 1982.

10-ريتشارد سوذرن، ترجمة، د.رضوان السيد، صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى، معهد الإنماء العربي، ط1، بيروت، 1994.

11-رودي بارت، ترجمة، د.مصطفى ماهر، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية (المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه)، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1967.

12-طه الولي، الإسلام والمسلمون في ألمانيا بين الأمس واليوم، دار الفتح، بيروت ط1، 1966.

13-عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط4، 2003.

14-يوهان فيك، تعريب عمر لطفي العالم، تاريخ حركة الاستشراق، الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين، دار قتيبة، دمشق، ط1، 1996.

15-زقزوق محمود حمدي، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري (كتاب الأمة)، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية – قطر، ط2، 1404هـ.

16-محمد حسين علي الصغير، المستشرقون والدراسات القرآنية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1986.

دوريات:

17-د.عبد اللطيف الطيباوي، المستشرقون الناطقون بالإنجليزية و مدى اقترابهم بحقيقة الإسلام، مجلة الإنماء العربي للعلوم الإنسانية، عدد 32، معهد الإنماء العربي، بيروت. السنة الخامسة، يونيو، 1983.